

قتلة الفلسطينيين
يكون على فلسطينإبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

ولكن الغريب والعجيب هو أن قتلة الفلسطينيين بالأمس يزايدون اليوم على المتظاهرين الآخرين، وبيبالغون في الجأء على فلسطين، ويطالبون بالنفي العام لتحرير الأرض السليبية، وهم كاذبون ومناقضون.

مع العلم أن حروب حماس، كلها، من أولها إلى آخرها، هي حروب النظام الإيراني، مئة في المئة، لأغراضه وأهدافه السياسية الخاصة به التي لا علاقة لها بفلسطين.

ففي تصريح، يبدو أنه الأول من نوعه، تحدت النائب المتشدد في البرلمان الإيراني والقائد السابق في الحرس الثوري جواد كريمي قدوسي في مقر لقوات الباسيج في طهران، فقال "إن كتائب القسام، وهي الذراع العسكرية لحركة حماس، ليست تحت إمرة إسماعيل هنية أو خالد مشعل، إنما هذه القوات تتحرك بأوامر إيرانية، لأنه في حال باعته قيادة حماس نفسها للدول الأخرى تبقى كتائب القسام بايدينا".

كما كشف مسؤول عسكري إيراني آخر أن بلاده نقلت تقنية صواريخ فجر-5 إلى قطاع غزة، حيث قصفت بها الفصائل الفلسطينية بلدات إسرائيلية، خلال حربها الأخيرة.

ثم خطب هنية، من الدوحة، وهو على بعد أمتار عن المبنى الذي يرفرف عليه العلم الإسرائيلي، وعلى بعد أمتار أيضا، عن قاعدة العديد العسكرية الأميركية، فوجه شكره الخاص إلى إيران على الدعم الذي تلقتة كتائب القسام.

إن قضايا الشعوب لا تتجزأ. فلا يمكن لمن يمارس القهر والظلم والتهمير والتدمير ضد شعب، هنا، أن يكون صادقا في دفاعه عن حقوق شعب آخر، هناك.

والذي فعلته ميليشيات النظام الإيراني بالعراقيين أمس، وما فعلته وما تفعله اليوم، بالشعب العراقي والسوري واليمنى واللبناني والذي زاد أضعافا على فعله ويفعله اليهود الإسرائيليون بالفلسطينيين، لا يمكن أن يجعل المواطن الفلسطيني، قبل غيره، يصدق أنها لن تفعل به الشيء نفسه، لو تحقق هدف النظام الإيراني وتمكن من فرض هيمنته على غزة، من خلال حماس وكتائب القسام والجهاد الإسلامي في يوم من الأيام.

نعم لا يوجد عراقي واحد شريف وأصيل يعترض على وضع جميع الطاقات والإمكانات العراقية للدفاع عن الحق العربي الفلسطيني المحتجب في مواجهة العنجهية العنصرية الصهيونية وصلافة المستوطنين الذين لا يتوقفون عن استفزاز المواطن العربي الفلسطيني ومحاصرته وابتزازه وإجباره على ترك منزله بالقوة.

ولكن، وهذا ما تريد إجابته هذه المقالة، هل يمكن اعتبار الهتافات وحرق الاعلام الإسرائيلية وشتيم الحكومات العربية المتخاذلة، المخاصمة للنظام الإيراني، دليلا على صدق الميليشيات الوقحة في نصره غزة والقدس وفلسطين؟ فالإرهابي، هنا، لا يمكن أن يكون عدوا حقيقيا لإرهابي آخر هناك. وبعبارة أقصر، إن القاتل في العراق لا يصلح لنجدة مقتول في فلسطين، ولا يصلح لمقاتلة القاتل نتجها. فهل تستمع حماس، وتتعط وتوتب؟ وهل يتقى الله في دماء الفلسطينيين وكراماتهم وأوطانهم قادتها الغارقون في العسل الإيراني المسموم؟

لا يختلف اثنان معنيان بوضع النقاط على الحروف على أن كل ما حدث في الضفة والقدس، ما هو إلا أعمال شعبية عفوية وغير منظمة، لا شأن للفصائل القديمة الرائدة بها، وكان الغضب الشعبي هو صاحب الفضل في صدور قرار المحكمة العليا الإسرائيلية في التاسع من هذا الشهر، تأجيل البت في ملف طرد عائلات فلسطينية من منازلها في حي الشيخ جراح، بعد طلب قدمة المستشار القانوني للحكومة الإسرائيلية أفخاي مندلبليت، فقد جاء متأثرا بمظاهرات يومية طالبت بإنقاذ الحي من التهجير القسري والتطهير العرقي لسكانه.

وفي الحقيقة كان استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل التواصل على

حكاية الفلسطينيين في العراق حكاية طويلة ومريرة. فلمن لا يعرف نقول إن العراق يكاد يكون الدولة العربية والأجنبية الوحيدة التي ألغت تسمية "لاجئ فلسطيني"، وأصدرت قانونا بذلك فتجعله مواطنا ضيفا على الشعب العراقي باسم "فلسطيني"، ولم تمنحه حق الإقامة الدائمة، فقط، والدراسة والعمل والحرية الكاملة في التحرك والتنقل والتملك، بل أجازت له استخدام من يخصه من الأقارب، بموجب قانون لم الشمل، مع راتب وسكن.

وكان أكثر الحكام العراقيين رعاية لهم هو الزعيم عبد الكريم قاسم، ثم تحسنت وسائل العناية بهم في زمن الرئيس عبدالسلام عارف، وبلغت أحسن أحوالها في أيام الرئيس أحمد حسن البكر ثم صدام حسين.

حتى أن بعضهم استحق درجة متقدمة في الوزارات والمؤسسات العراقية، كما برز منهم مفكرون وأدباء وشعراء، ومنهم الشاعر والناقد البارز جبرا إبراهيم جبرا، والشاعر والناقد المهتم خالد علي مصطفى، والمبدع الموسيقي ومربي الأجيال العراقية الفنان روجي الخماش، وناصيف عواد وأديب ناصر وحسن طوالبه، وآخرون. والخلاصة هنا هي أن أحدا من العراقيين لم يكن يعتبرهم أجانب، كما كان حالهم في بلدان عربية عديدة.

ولولا قرار جامعة الدول العربية القاضي بمنع منحهم الجنسية انتظارا لعودتهم إلى ديارهم في قادم الأيام لكانوا قد أصبحوا عراقيين من زمن بعيد.

ويُعتقد بأن حوالي 34 ألف فلسطيني كانوا يعيشون في العراق. ولكن حين حدث الغزو الأمريكي للعراق، ودخلت الميليشيات العراقية قائمة من إيران بدأ الفلسطينيون في العراق يتعرضون إلى أسوأ أنواع القهر والاضطهاد والظلم والترويع، إما بقوانين الحكومة وإجراءاتها التعسفية أو بممارسات الجماعات المسلحة الشيعية التي اعتبرت المعاملة التفضيلية التي تلقوها في أيام صدام حسين دليلا على كونهم صداميين.

فقتل منهم من قتل، واعتقل من اعتقل، وخاف كثيرون آخرون فآخذوا بأقوالهم ونساءهم وشيوخهم هربا من العراق. وما زالت عائلات فلسطينية عراقية عديدة تعيش في مخيمات على الحدود، بعد أن رفض الأردن وسوريا دخولهم. وبالعودة إلى الانتفاضة الشعبية التي عمت فلسطين في الأيام الأخيرة من الضفة وغزة إلى جميع مدن الداخل الفلسطيني المحتل منذ العام 1948، وما ترتبته عصابات المستوطنين العنصريين بحق المدنيين الفلسطينيين، والحرب التدميرية الشاملة المستمرة التي يشنها القاتل بنيامين نتنياهو على غزة، وغاراته الجوية والبحرية البرية التي قتلت ودفنت تحت الانقاض أطفالا ونساء وشيوخا ومدنيين بالآلاف لم نجد غرابية في أن يخرج الشعب العراقي غير المنتمي إلى الميليشيات، عن بكرة أبيه، من جميع الطوائف والقوميات والأديان والمناطق، منطلقا من عمق الروابط الصادقة النزوية التي ربطته بشقيقه الفلسطيني، من العام 1948 وحتى النفس الأخير.

فصائل منظمة التحرير
خارج الموقف الفلسطيني العام

وفي بحر أسبوع واحد بعد فتح النيران، أطلقت حماس والجهاد الإسلامي وفصائل أخرى صغرى، نحو ثلاث آلاف صاروخ، بمعدل نحو 450 صاروخا في اليوم الواحد، وأثناء هذا الإطلاق، ظهر تنوع فاجأ الإسرائيليين في نوعية الصواريخ نفسها. وعلى الطريقة الإيرانية ظهرت أسماء جديدة للصواريخ الأبعد مدى والأكثر قوة تفجيرية بل ظهرت أيضا مجموعة من المسيرات، وتحدث الجيش الإسرائيلي عن نماذج صغيرة من الغواصات، وقال إنه احتواها وفجرها. وفي هذه الأثناء، لجأت إسرائيل إلى الأسلوب القديم - المحسوب نفسيا، وهو دفع الطيران إلى تدمير البيوت والعمائر فوق أصحابها، ما خلا ذلك التدبير، بإعطاء بضع دقائق للسكان للإخلاء سريعا قبل قصف الأبراج وتسيوتها بالأرض. وعلى الرغم من الخسارة الفادحة التي سببت بها غزة في الأرواح والعمائر، وسقوط ما يزيد قليلا عن 240 فلسطينيا منهم 61 طفلا وجرح نحو 6500 حتى كتابة هذه السطور؛ إلا أن وتيرة التأييد للمقاومة ظلت في ارتفاع، لأن إسرائيل لم تفتح مجالا لرأي فلسطيني آخر يتفاعل بإمكانية الحصول على أقل الحقوق بداهة، حتى ولو اقتصر على تسهيلات في المعيشة والحركة وشيء من الاستقلال الاقتصادي الذي يشترط وصول الواردات من السلع عبر إسرائيل.

كان هناك، قبل جولة الحرب الأخيرة، انسداد الأفق السياسي تماما، وتعمت إسرائيل مع انتعاشها باتفاقيات التطبيع العربية، وتحول قيادة السلطة الفردية الفلسطينية إلى ما يشبه اللجنة المحنطة وإلغاء الانتخابات التي يمكن أن تحرك المياه الراكدة وتذهب بالفلسطينيين إلى واقع سياسي داخلي جديد، مع استمرار التنسيق الأمني دون أي ثمن سياسي؛ وهذا كله هو الذي أنتج في المحصلة هذه الحرب التي دفع الفلسطينيون ثمنها باهظا لها، وفرضت على الإسرائيليين نمط تفكير جديد، يشوبه التحسس مع اهتزاز القناعة بأن هذه الدولة ليست محصنة تماما، وأن أي "نخوة" عربية أو إيرانية من الجوار، لو حدثت، كان يمكن أن تضطرها إلى أن تتحسس سلاحها الذري.



استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل التواصل هو الذي صنع الزخم لتظاهرات القدس مثلما كانت القبضة الأمنية الإسرائيلية هي السبب المباشر في جعل المقدسيين يهتفون ضد عباس ويطالبون برد ثأري من غزة

نطاق واسع، هو الذي صنع الزخم الكبير لتظاهرات القدس، مثلما كانت القبضة الأمنية الإسرائيلية، بغلاظتها، هي السبب المباشر في جعل المقدسيين يهتفون ضد عباس ويطالبون برد ثأري من غزة، وناشدوا القائد العام لكتائب القسام محمد الضيف بالتدخل ولم ينتظر الضيف وكتائبه؛ أسباب عدة يمكن أن تجعل المختصين في الشأن الفلسطيني، ميالين إلى تحميل فصائل منظمة التحرير وقيادة السلطة المتمثلة في رئيسها المتفرد؛ المسؤولية الأولى، على الجانب الفلسطيني عن انفلات الأمور دون تحميل حماس أي مسؤولية بحكم ما تعرض له الفلسطينيون في القدس من أعمال قمع وحشية. فلو أن هذه السلطة، ومن ورائها الفصائل، كانت حريصة على تأسيس نظام سياسي رصين يجمع كل الأطراف ويكرس الديمقراطية والقانون ويحافظ على المؤسسات الدستورية، ويضفي بالفلسطينيين وفق استراتيجية واحدة؛ لما شاهدنا المشهد الفلسطيني يتوزع على استراتيجيتين، واحدة للقلعة التي تريد أن تتحاشى المواجهة تماما وتكتفي من "الحكمة" بدم حماس مع إظهار التعاطف اللطفي مع الضحايا في غزة، والثانية التي تعاطفت معها الجماهير الفلسطينية، وهي استراتيجية قذف إسرائيل بالصواريخ وخوض الغمار.

وبحكم طبائع الأوساط الحاكمة في إسرائيل، ومازتها الداخلي الذي تقافم بعد أربعة انتخابات عامة، فشلت فيها في تأسيس حكومة وتبني الخطاب إلى انتخابات خامسة، كانت الرعونة هي السمة الأساسية لتصرفات الإسرائيلية. لكن هذه الأوساط نفسها، وبعد الذي جرى ويجري حتى الآن، تنبّهت إلى الحاجة لمساعدة عباس بإعطائه - شكلا - تنازلا عن التنفيذ العاجل لإخلاء بيوت الفلسطينيين في حي الشيخ جراح، والتعهد بعدم اجتياح المسجد الأقصى. عندما قررت التفاعل مع الذي يجري في القدس، في إهاب عملية ردع لإسرائيلي، طالما أن لا طرف دوليا يردعها عن انتهاك كل المواثيق الدولية وعجز الطرف الرسمي الفلسطيني عن التأثير في السلوك الإسرائيلي، ولو بشفاة "التنسيق" الأمني وكراهة المقاومة؛ رات حماس أن هذه فرصتها التي لا يجوز التلكؤ في اهتبالها، لكي تبدو صاحبة المسؤولية الأولى في الدفاع عن الشعب الفلسطيني. ذلك لاسيما وأنها استطاعت مراكمة وتطوير المزيد من عناصر القوة بكلفة كبيرة، تسليحا وحفرا لمنظومة أنفاق، يسيمها الجيش الإسرائيلي "المترو".

عبدلي صادق
كاتب سياسي فلسطيني

كثيرة هي الدلالات التي أفرزتها الحرب الإسرائيلية - الفلسطينية الأخيرة التي لم تنته حتى اللحظة. من بين هذه الدلالات أن من تسمى "فصائل منظمة التحرير" بدت خارج الحرب تماما، وإن السلطة التي أنشأها الفصيل الأكبر أو قيادته، لم تعد عنوانا يحسم أي شيء. وهذه الفصائل في الواقع هي براقش التي أوصلت نفسها إلى هذا الحال، مرة بالرهان على تسوية مقبولة للأولويات والمراحل، ومرة أخرى عندما رضخت لواقع السلطة ولم تستطع تحويلها إلى كيان طليعي جامع يقود مشروع الاستقلال الفلسطيني، بل إن هذه الفصائل حافظت على التباين بين خطاب كله من له خطاب منها؛

الثلاثة اضطرت حركة فتح إلى الانكفاء على الجماهير التي أهملتها، فالتحذرت من التظاهرة الحاشدة في رام الله، موضوعا تتحدث فيه عن حراك وإنجاز، لها تحديا وحصرًا، بينما الناس التي خرجت إلى الشارع في يوم إضراب عام في عموم أراضي فلسطين التاريخية، لكي تعلن عن استنكارها للتدمير المنهج لغزة بالطيران الإسرائيلي، وللإعلان عن موقفها المؤيد لرواية الأطراف الفلسطينية التي انخرطت في الحرب من غزة، أي الرواية التي تؤكد على وجوب إطلاق الصواريخ، تلبية لنداء المقدسيين أثناء تعرضهم لهجمات المتطرفين الإسرائيليين الأصوليين في حي الشيخ جراح والحرم القدسي. وفي الحوارات التلفزيونية القليلة التي شاركت فيها عناصر من السلطة كان لافتا حرص هذه العناصر على تعداد "إنجازات" لها، عند الإشارة إلى هبات غضب شعبية عفوية لإزالة حواجز حديدية (25 أبريل الماضي) أبريل أو قبله، في يوليو 2017 كاميرات وضعتها المحتلون عند بوابات المسجد الأقصى وفي داخله.

لا يختلف اثنان معنيان بوضع النقاط على الحروف على أن كل ما حدث في الضفة والقدس، ما هو إلا أعمال شعبية عفوية وغير منظمة، لا شأن للفصائل القديمة الرائدة بها، وكان الغضب الشعبي هو صاحب الفضل في صدور قرار المحكمة العليا الإسرائيلية في التاسع من هذا الشهر، تأجيل البت في ملف طرد عائلات فلسطينية من منازلها في حي الشيخ جراح، بعد طلب قدمة المستشار القانوني للحكومة الإسرائيلية أفخاي مندلبليت، فقد جاء متأثرا بمظاهرات يومية طالبت بإنقاذ الحي من التهجير القسري والتطهير العرقي لسكانه.

وفي الحقيقة كان استخدام الشباب الفلسطيني لوسائل التواصل على